قيمة الكائن البشري

بنين حامد جبار

باحثة عراقية

السؤال الجوهرى للأخلاقيات الطبية، وبالفعل لأي أخلاقيات، وأيضاً بمنطق ما السؤال الأول الذي ظهر عندما نبدأ في الإمساك بالمشكلات الأخلاقية؟، السؤال ببساطة. ماذا يجعل الحياة البشرية ذات قيمة؟، بالتحديد، ماذا يجعلها أكثر قيمة من أشكال الحياة الأخرى؟ ليس هناك شك بالطبع أننا نقدر الحياة البشرية، نعتقد أنه من المهم إنقاذ شخص ما أكثر من إنقاذ كلب عندما لا نستطيع أن ننقذهما معا، ونعتقد أنه من الصواب فعل ذلك. لا يعتقد تفضيل الحياة البشرية على أنه تحيز لفصيلتنا لكن ما أساس هذا الاعتقاد، ماذا يبرره، وماذا إذا كان هناك ما يجعله أكثر من تحيز لأنفسنا أو لوعنا؟⁽¹⁾

هناك فريق كبير من المفكرين لا يعارض الإجهاض في الحالات الصارخة من الأمراض الوراثية الخطيرة. كمثال مرض ليش نيهان ومرض تاي ساكس - وهم يبدأون بمحاولة تعريف الشخص". هل يمكننا أن نعتبر الجنين شخصا؟ خصوصا في المراحل الأولى من الحمل (التي يسمح فيها بالإجهاض)؟ المعروف أن الجنين حتى عمر 26 أسبوعا لا تكون له الاتصالات العصبية التي تمكنه من أن يشعر بالسرور أو بالألم. وما ليس له شعور ولا إدراك لا يعد شخصا له حقوق يمكن أن تنتهك بالإجهاض، فليس ثمة من يحمل هذه الحقوق. لكن إنكار حقوق الجنين من ناحية أخرى يجعل الإجهاض أمرا هينا من الناحية الأخلاقية، وهو بالتأكيد ليس كذلك، على الأقل بالنسبة لكل امرأة حامل.⁽²⁾

قيمة الحياة عند الليبراليين يبتدئ تشكيلها منذ نشأة الفرد: أي تغذيته قبل الولادة وبعدها، الرعاية والحنان والحب التي يمنحها له الآخرون، السبل التي سلكها الفرد لصياغة حياته، والاحتمالات التي فتحها له جهوده. انظر إلى إحساسنا بتراجيديا الموت. عندما تنتهي الحياة في الطفولة أو في الصبا الباكر، نأسى على ما ضاع سدى من الحب والرعاية والجهد لكن إحساسنا بموت "إنسان لا يكون كبيرة. وإذا مات الشخص في عمر متأخر أصابنا الحزن، لكنه

¹⁰ Clifford Grobstein, science and the Unborn. Basic Books, Inc. publishe, N.Y,1988, P.22.

²⁰ أحمد مستجير: قراءة في كتابنا الوراثي، الهيئة العامة للكتاب، 2013، ص 90-91.

حزن يدرك أن ما بذل من جهد قد أتي أكله ، فلقد تحقق بالفعل ما كان محتملا. أما الأكثر مأساوية فهو الموت في سن النضج أو الشباب الباكر، عندما يكون ما بذل في تطوير حياة الفرد وتشكيله قد أفصح عن نفسه في احتمالات واضحة غدت على شفا التحقيق، ولما تتحقق نقول إن إنسانا مات والعالم كله متفتح أمامه.⁽¹⁾

وتظهر الاتجاهات الحذرة لدى الهيئات الطبية والتشريعية الغربية بالنسبة للأفعال التي قد تؤدي إلى تشجيع الإجهاض، في الاهتمام الخاص الذي وجهه برلمان المجلس الأوروبي، وعدد من الهيئات القومية في أوروبا و استراليا، وبعض لجان الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية. والجماعات الاستشارية التابعة لوزارة الصحة والخدمات البشرية بالولايات المتحدة، فهناك نوع من الإجماع العام لدى هذه الهيئات فيما يتعلق بضرورة فصل قرارات استخدام أنسجة الأجنة عن قرارات الإجهاض (بمعنى أن لا يتم الإجهاض خصيصا لغرض توفير الأنسجة)، ويجب أيضا الفصل التام بين من يقومون بكل من العمليتين من الأطباء ويجب ألا تخضع أنسجة الأجنة للتجارة، ويجب أن تقوم اللجان الأخلاقية المحلية بمراقبة الحصول على أنسجة الأجنة واستعمالها، ويجب أخذ موافقة المرأة التي أنتجت هذه الأنسجة، بعد الإجهاض، بغرض استخدامها فيما بعد. هذه هي الشروط التي يجب أن تتبع في حالة التعامل في أنسجة الأجنة. ولقد أعلن المجلس الأوروبي The Council of Europe أيضا أنه حتى بعد الموت فإن الجنين يحتفظ بصفته البشرية .. ويتطلب احترام الصفة البشرية أن يمنع من التعرض لأي تجارة أو صناعة.⁽²⁾

ومع ذلك تظهر اعتراضات على فكرة أن حقوق الإنسان ممكن حمايتها جيدا بالفصل التام بين قرار إجهاض الأجنة واستخدام أنسجتها وبالقرارات والأشخاص الذين يقررون ذلك، ويزعم جروبشتاين Grobstein . أن ذلك يمكن أن يكون أكثر انطلاقا من حيث احترام الإنسان وكرامته إذا ما أتيحت الأجنة للاستخدام بطريقة تنعكس فيها تماما قيمهم كأعضاء في المجتمع البشرى. ويجب أن تعدل إجراءات الإجهاض بحيث تحافظ على كيان وحياة الكائن الذي سيجهض دون تحطيم هذا الكيان وتلك الحياة، أما أناس والياس Annas and Elias فيريان أنه إذا ما كان هناك تأكيد بأن أنسجة الجنين يمكن أن تكون علاجية، وأن الإجهاض يمكن أن يتم بطريقة تساعد على إمكان استخدام أنسجة الجنين دون تعرض المرأة لأي مخاطر إضافية، فسوف يكون هناك أيضا نوع من الضغوط لتبني هذه التقنية. ويبدو أن الأرجح، وإن لم يكن

¹⁰ المرجع نفسه، ص.91.

²⁰ برودى: تقنيات الطب البيولوجية ، ترجمة يوسف يعقوب السلطان ، مراجعة محمد السعيد ، مؤسسة الكويت التقدم العلمي ، الكويت ، ١٩٩٩ ، ص.412.

مؤكداً أن بعض الأزواج الواعين نتيجة التعاون أطبائهم قد أنتجوا بالفعل وأجهضوا من أجل الحصول على أنسجة جنينية للاستخدام العلاجي من جانب بعض المقربين.⁽¹⁾

إن الأجنة لا تعي ذاتها إلا بعد نمو الجهاز العصبي فيها، (أي حتى الأسبوع الثامن)، ولذلك فهي من وجهة نظرهم، لا تعد سوى كائنات حية لا تحتلف حقوقها عن حقوق بقية الحيوانات في تجنيبها الألم إذا أردنا أن نجري عليها تجارب. أما الأشخاص المتخلفون أو الميتون من الناحية الإكلينيكية، فهؤلاء لهم وجود فعلي، وبعضهم كان على اتصال بالآخرين، وكان يملك حرية اتخاذ القرارات قبل أن يدخل في غيبوبة دائمة. ولذلك، يرى هؤلاء أن الأجنة والبويضات الملقحة ليس لها حقوق البشر العاديين، ولكن يمكن القول إنه لا يوجد أي فرق بين المجموعتين، فالأجنة الملقحة أو الأشخاص المعوقون أو المرضى الذين هم في غيبوبة دائمة بحيث تكون عودة الوعي إليهم مستحيلة تماماً من الوجهة الطبية، كلهم لا يملكون الوعي بالذات، وليس عندهم قدرة على الاتصال، بل إن البويضة الملقحة لها حقوق.

التقنيات الحديثة في علم الأجنة خارجية التخصص، والتي تجعل من الممكن نمو الجنين ليقدم نسيجة بشرية موصى عليه، يعطينا سبب أكبر لنكون واضحين بشأن القيمة النسبية للجنين والبالغ. الكثير يعتقد أن إجابة هذا السؤال يمكن صياغتها إذا استطعنا التأكد من إجابة السؤال المرتبط بـ "متى تبدأ الحياة؟"⁽²⁾، والعودة إلى الطرف الآخر من السلسلة، إن مشاكلنا الخاصة بإدارة أولئك الذين في حالة مستمرة سوف تحل إذا كان لدينا تعريف ملائم للموت. أزعج أن هذين السؤالين أدركوا بشكل خاطئ حتى عندما تم الإجابة عنهم بشكل محدد، وأن ما يجب أن نعرفه ليس متى تبدأ الحياة، ولكن متى تبدأ الحياة في أن تكون مهمة أخلاقياً. وأن السؤال المرتبط ليس متى تنتهي الحياة ولكن متى لا تكون الحياة ذات قيمة أخلاقياً، باختصار، متى تبدأ الحياة في أن يكون لها تلك القيمة الخاصة المرتبطة بالحياة البشرية ومتى لا تكون لها هذه القيمة.⁽³⁾

إن السؤال متى تبدأ الحياة البشرية أن يكون لها ميزة أخلاقية، أن السؤال هو نفس السؤال متى يصبح الجنين شخصاً؟ إن الارتباك يبدأ هنا. لأن السؤال بشأن الميزة الأخلاقية، وهو متى تكون الأجنة ذات شأن أخلاقي، هو سؤال يجب الإجابة عنه عن طريق الأحكام

¹⁰ المرجع نفسه والموضع نفسه.

²⁰M Harris: "In - Vitro Fertilization: The Ethical Issues" Philosophical Quarterly, England. Vol. 33. No. 132, 1983, P. 227.

نقلًا عن: ناهدة البقصي: الهندسة الوراثية والأخلاق، سلسلة عالم المعرفة، (174)، الكويت، 1993، ص ١٢٨.

³⁰Harris, J., The Value of Life, P.9.

والقرارات، حسب نقطة أخلاقية محددة. هو ليس سؤال بشأن حقيقة لكن بشأن قيمة. بكم نقدر قيمة الحياة البشرية في مراحلها الأولى؟ أما ترجمة ذلك في سؤال بشأن ما كان الجنين في مرحله الأولى يعد شخصا أم لا، يبدو انه تساؤل عن حقيقة... أن الشخصية، امتلاكها أم لا، سؤال عن قيمة، كما في السؤال متى تبدأ حياة الإنسان في أن تكون ذات قيمة، صعب على البشر التوصل إليه.⁽¹⁾

ما معنى القيمة؟

عندما نجعل الحياة البشرية ذات قيمة، فإننا لسنا مهتمين بما يجعل هناك اختلاف في القيمة بين الأفراد، لكن بما يجعل الأفراد من نوع محدد أكثر قيمة من الآخرين. إذن، فنحن لسنا مهتمين بأي نوع من المعايير يمكن أن تجده في بالون الجدل، حيث يتم إعطاء أسباب لأن كل شخص في البالون أكثر قيمة من الآخرين، وهذا يجب أن يكون آخر شخص يتم التخلص منه لمنع الاصطدام، أكثر من ذلك، فنحن مهتمين بسبب وإذا ما كان لدي البشر تميز محدد وقيمة ببساطة لأنهم بشر ولديهم كل المعايير أن يكونوا أشخاصا، وليسوا أنواعا مختلفة من الكائنات أو الحيوانات أو النباتات، والذين لا يملكون هذه الخصائص.⁽²⁾

لكن عندما نسأل ما يجعل حياة الفرد ذات قيمة فنحن نحاول تعريف هذه الخصائص، مهما كانت، والتي تحدثنا على تقدير أنفسنا وتقدير الآخرين والتي ترخص لاعتقادنا أننا أكثر قيمة من الحيوانات، الأسماك أو النباتات. نحن نبحث عن أساس الاعتقاد أنه من الصحيح أخلاقياً اختيارنا إنقاذ حياة شخص أكثر من الكلب عندما لا يمكننا إنقاذ الاثنين، واعتقادنا أن هذا ليس مجرد نوع من التحيز لفصيلتنا لكن له قدرة على التبرير.

عموماً فإن الخصائص التي تبحث عنها، رغم من أن الإنسان البالغ سوف يملكها، أن ترسم ببساطة الاختلاف بين الإنسان والمخلوقات الأخرى. بل تشير إلى خصائص لها علاقة أخلاقية، والتي تبرر تفضيلنا لأنفسنا و اعتقادنا أنه من الصواب معاملة البشر على أنهم متساويين وأرقى من كل المخلوقات الأخرى.⁽³⁾

إننا لا نبحث عن صفات معينة لإنسان ما مقابل إنسان آخر، وإنما نبحث عما هو مشترك بين البشر جميعاً.

¹⁰Harris, J: Clones, Genes and Immortality, Oxford, Un Press, 1998, P.45.

²⁰Harris, J., The Value of Life, P. 9.

³⁰Ibid, P.9.

إننا بحاجة في البداية إلى معرفة المعنى المقصود بكلمة (قدسية Sanctity) لأن تحديد هذا المفهوم، ليس مفتاحاً لموضوع الإخصاب الصناعي فحسب، بل هو الطريق لكل القضايا المرتبطة بالطب والبيولوجيا الطبية. ذلك لأن هذه المجالات لا تتعامل إلا مع الإنسان، وغايتها خدمته قبل كل شيء. والسبب الثاني هو أن الأطباء والبيولوجيين يهتمهم الإجابة عن هذا السؤال لأهم يثرونه في كل يوم بل وفي كل ساعة من ساعات العمل.⁽¹⁾

الجنين والمضغة باعتبارها شخصاً:

أصبحت عملية نقل وزرع الأجنة قضية أخلاقية ذات جانب سياسي، سواء على مستوى الهيئات الحكومية أو غير الحكومية. ويرجع ذلك أساساً إلى أن مصدر الأجنة التي تزرع أصلها من الإجهاض المحدث أو المتعمد، وتثور المخاوف من أن الموافقة عليها قد تزيد من حوادث الإجهاض المتعمد. والحقيقة أن مشكلة الإجهاض مشكلة قائمة من حيث أن الجنين الذي تقتله يعد بمثابة شخص منتظر أو شخص فعلي له حق الحياة الذي له أولوية على حق المرأة الذي تحمله.

ولقد اختلف تعريف الجنين والمضغة على أنه شخص أو كائن حي إنساني على مدى التاريخ، تماماً كما كان هناك تغير في وضع البالغين على مدى التاريخ (مثلاً من نظام الرق، ومذاهب سمو بعض الأجناس والأعراق، ووضع المرأة في مكان متدن، وتطبيق حقوق الإنسان على السجناء والمعوقين عقلياً). ولقد أضافت العلوم المعاصرة بعض الشكوك حول التعريف المقبول للكائن غير المولود في مراحل نموه المختلفة داخل الرحم سواء ما قبل المرحلة الجنينية أو في المرحلة التكوينية للجنين الكامل، حتى أن تجمع الخلايا أو تكوين الكيسة الأريمية أو العلقة Blastocyst بعد نجاح الإخصاب، وهذه في حد ذاتها عملية تستمر لعدة ساعات، أطلق عليها في عام 1985 في المملكة المتحدة مرحلة ما قبل الجنينية، وهو تعريف يحدده فئة الكائن الحي المتطور في فترة محددة في الفترة التي يحتمل أن يسمح فيها بإجراء الأبحاث وفقاً لما حملته لجنة وارنوك Warnock في المملكة المتحدة (1984). ويكون هذا قبل تحديد الخط العصبي وتطور الفردية في فترة تتراوح بين 10 و 14 يوماً من الإخصاب⁽²⁾. وهذه الكيسة الأريمية أو العلقة "البلاستوست" أو المرحلة ما قبل الجنينية هي تجمع خلايا تزول وتنتهي طبيعياً في ثلاثة حالات من كل أربعة. ويمكن منع دخولها إلى الرحم باستخدام حبوب RU - 486 في صباح اليوم التالي. وهذه العلقة أو الكيسة الأريمية يمكن حفظها مجمدة في الخارج لفترات غير محددة

¹⁰ ناهدا البقصى: ص104.

²⁰ برودى: تقنيات الطب البيولوجية، ص211-212.

ويمكن تذويبها من التجمد وزرعها في رحم مع أو مجهز لاستقبالها، وقد يكون غير رحم الأم الأصلية. ويعد التكوين الخارجي أو تنمية أجنة بشرية خارج الجسم من مراحل قبل جنينية أو من أكياس أريمية إذا أمكن الإبقاء على استمرارية الحياة فيها بأجهزة ووسائل مناسبة، يعد إمكانية تستحق التفكير فيها .. ويعتقد جروبيشتاين Grobstein أنه يأخذ كل هذه العوامل في الاعتبار فإن:

إن تشكيلاً مناسباً، وموقفاً جماعياً يضمن احترام وكرامة الكيان البشري الكائن الجنين غير المولود يمكن بسهولة أن يدخل ضمن الواجبات التي ينص عليها. وقد يكون من الأهداف المفيدة على إيجاد مرشد يتضمن ما يتم الاتفاق عليه حول الأمور المتوقعة حتى قبل أن تصبح ممكنة الحدوث. وربما كانت الفرضية العامة هي أن التدخل الذي يجري على الكائنات البشرية في أي مرحلة من المراحل أمر لا يسمح به إلا إذا تم بناء على تقنين معين بناء على أهداف محددة متفق عليها. على أن يتم ذلك من خلال قرارات رسمية تحافظ على مصالح الجميع.⁽¹⁾

بعد زرع العلقة أو الكيسة الأريمية في الرحم يبدأ الكائن الحي بنيانه الأساسي في الشكل، ويتغير تغيراً سريعاً، وبينما لا يكون التكوين الجنيني قد اكتمل في الأسبوع الثامن، فإن التكنولوجيا المتقدمة مثل الموجات فوق الصوتية يمكن أن تحدد وجود القابلية للإصابة أو وجود عيوب خطيرة قد تؤدي إلى اتخاذ قرار بشأن إنهاء الحمل، أو بمعنى آخر إنهاء حياة الجنين أو المضغعة عن طريق الإجهاض. ويعتقد وولر Waller أن القواعد المتعلقة باستخدام وزرع الأجنة يجب أن تتكامل في قوانين نقل وزرع الأعضاء والأنسجة بصفة عامة. ويعتقد ليست الهيئة القضائية بل المجلس التشريعي القومي هو المسؤول عن تحقيق ذلك، وعند تذكر ما يراه البعض ممن لاحظوا وجود الاشمئزاز الطبيعي من فكرة تحويل الأنسجة البشرية إلى سلع أو أشياء، يعترف وولز بإصرار بعض الآباء على إجراء طقوس أو شعائر رسمية لدفن الأجنة وخاصة التي أجهضت في مراحل متأخرة من الحمل، ويعتقد أن هذه الظاهرة يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند تعريف وضع الأجنة وتحديده.⁽²⁾

البشر والأشخاص:

عند تعريف الأشياء التي تجعل الحياة الإنسان قيمة سنشير إلى الخصائص التي سوف تجعل وجود أي كائن يملكها قيم. من المهم أن تكون هناك كلمة لمثل هذه الكائنات والتي ليست

¹⁰ المرجع نفسه، ص 212.

²⁰ Ibid, P. 10.

ببساطة بشرية التمرکز أو مميزة الفصيلة. سوف استخدم - هاريس - كلمة شخص التعبير عن أي كائن يملك ما يتطلبه ليكون ذات قيمة من المنطلق الموصوف، مهما كان. على الرغم من أنه في الاستخدام العادي فإن شخصا مجردا مصطلح آخر للإنسان، كما ساستخدمها من هنا وفيما نتصور. مثلا، سواء إذا ما كان هناك بشر على الكواكب الأخرى أم لا، هو سؤال حقيقي. إذا كان يوجد، فإننا لسنا بحاجة أن نتوقع أنهم أناس (سيكون من الغريب أن يكونوا إنساناً)، كما أننا لسنا بحاجة أن نتوقع أن يشبهونا. يحتمل ألا يكونوا عضويين، لكن يحتمل تكاثرهم عبر البناء الآلي أكثر من التكاثر الجيني. لكن إذا كنا قادرين على إجابة التساؤل بالإيجاب، سنميز بين البشر في العوالم الأخرى والحيوانات والنباتات أو الآلات في هذه العوالم، سنقرر إذا ما كانت الاستجابة الملائمة لهم أن نتناولهم على العشاء بطريقة أو بأخرى، وإذا اتضح أن البشر الذين سنجدهم أكثر تطوراً تكنولوجياً منا، ربما نأمل في إقناعهم بأننا أيضاً بشر، لسنا مثلهم ربما، لكن مثلهم بما يكفي لتكون ذو قيمة، ولنضمن أننا في نفس الاهتمام، الاحترام والحماية لما سيظهرونه لبعضهم البعض. وإذا كان الحال هو العكس، لنضمن لهم نفس الاهتمام، الاحترام، والحماية كما تظهر لبعضنا البعض. لكن بأي طريقة ستشبههم أو يشبهوننا؟⁽¹⁾

معاني الفرد

وبالمصطلحات الأكثر شيوعاً فإن معنى أن تكون فرداً هو أن تكون كياناً منفرداً ومعيناً وبالتالي يكون بالإمكان التعرف عليك كشيء واحد وفريد من نوعه، والوحدانية أو التوحد تشير إلى الانفرادية - وفريد من نوعه تشير إلى كونك معيناً بالمعنى الخاص بامتلاك كيان معين متميز عن الآخرين والشخصية الكلية لفرد واحد تكون مختلفة بطريقة معترف بها عن شخصية أخرى حتى لو أنهما متشابهان (وحتى لو أنهما توأم متطابق وتلك حالة خاصة) ومن المهم التعرف على المعنيين المتميزين لكلمة [فرد] أن تكون كياناً واحدة وتكون فريداً من نوعك الآن هاتان الصفتان لا تنشآن بشكل فوري في عملية التحول. وكذلك لا تنشأ العديد من الجوانب الأخرى للفردية التي تأخذها كمسلمات عند مناقشة الأوضاع الخاصة بالكبار.

نشير هنا إلى ستة من الجوانب المنفصلة للفردية والتي تنشأ خلال تاريخ حياة ما: الجيني والتطوري والوظيفي والسلوكي والنفسي والاجتماعي، والفردية الجينية تشير إلى الانفرادية أو الفردية الوراثية حيث تعني كلمة (وراثية) القدرة على الانتقال من جيل إلى جيل.⁽²⁾

¹⁰ Ibid, P. 45.

²⁰ Clifford Grobstein, P.22.

والفردية التطورية تشير إلى تحقيق الانفرادية وتوابعها، والفردية الوظيفية تشير إلى الأنشطة المتكاملة أو المتداخلة للكل إلى البيئات، والفردية النفسية تشير إلى الخبرات الداخلية العميقة التي تصاحب السلوكيات، والفردية الاجتماعية تشير إلى التعاملات الواعية في نطاق مجتمع من الأفراد.

وينشأ كل جانب من هذه الجوانب الفردية في عملية التحول إلى كائن بشري كبير ولكنها تظهر في أوقات مختلفة. والسؤال الذي يطرح نفسه هو أي من هذه الجوانب أو أي إتحاد بينها يدفع إلى حالة أو وضع جديد؟⁽¹⁾

بغض النظر عن الجدل أو النزاع على حقيقة استمرار الحياة ربما يحتج البعض أن هذا ليس في صلب السؤال الأصلي، ومن المؤكد أنهم سيقولون أن هناك شيئاً جديداً ينشأ فعلاً في كل جيل من الأجيال، وهذا يقدم لنا مثلاً للمعنى الثاني يمكن منه فهم السؤال ومصطلح الحياة والسؤال حينئذٍ يكون: متى تبدأ حياة فرد ما؟ وهذا سؤال مختلف وأكثر صعوبة يؤكد على أن الإنفرادية تلك هي ذروة الموضوع الذي علينا مناقشته في هذا الجزء.⁽²⁾

يسعى المتمسكون بحق الحياة إلى تبسيط المشكلة بالتصريح بأن الفرد يبدأ عند التخصيب ويجادل البعض بأن مثل هذا التبسيط يجب أن يكتب في دستور الولايات المتحدة، من الناحية العلمية سيكون ذلك إفراطاً في التبسيط، إفراطاً سيئاً جداً ولكي ترى السبب في ذلك يجب على المرء أن ينظر بعمق أكبر إلى ما يشير إليه التخصيب بالفعل مع الاحترام للفردية. التخصيب ليس مصطلحاً فنياً وله عديد من المعاني في الاستخدام العادي مثل المفهوم كتركيب عقلي أو فكري وأحد معاني المصطلح الأخرى يكون المعنى البيولوجي وهو متزلف مع التخصيب، توحد الأنسجة الفكرية والأنثوية - وللتخصيب نتيجتان رئيستان. إذ أنه يقوم بتنشيط ما كان في حالة خاملة للبيضة في الرحم حتى يتسنى له إتمام نضوجه واستمرار تطوره ويقوم بدمج أو توحيد الإسهامات الوراثية من كل من الأبوين لتركيب جيني وراثي فريد من نوعه (نوع الجين أو الجينوم).

يتم كتابة الجينوم باللغة الكيميائية الخاصة بالجزيئات الكبيرة وبصفة خاصة النتائج النووية لحمض [DNA] ويحكم الجينوم الجانب الوراثي الخاص بالدورة التطورية الناتجة عن ذلك، وأنه يقوم بذلك لأن هناك نسخة من الجينات تم نقلها إلى كل جيل خلوي جديد ولأن كافة المواد الجيدة المصنوعة في كل خلية تعكس الرسالة الجينية الخلوية. وتتضمن العملية

¹⁰ Ibid, P. 22.

²⁰ John Harris, J., The Value of Life, P. 11.

تعبيراً عن نمط أو نوع الجين وبصفة نهائية لكي تنتج النمط الخاص بالصفات وهي خصائص الفرد الجديد الظاهرة تماماً.⁽¹⁾

هكذا يبدل التخصيب خواص البويضة تبديلاً جوهرياً ليس فقط بتنشيطها ولكن بتزويدها بجينوم أو جين مشترك جديد مشتق من كل من جينات الوالدين فماذا يعني ذلك فيما يخص الفردية؟ بينما يكون التنشيط هو أمر أساسي أو ضروري لكل شئ كيف يستمر أو يتابع، فإنه يسهم إسهاماً مباشراً قليلاً للفردية وذلك يجعل الملاحظ. الخبير يتحرى الفحص لهذا التخصيب الذي يحدث خلال الساعات الأولى القليلة بعد اختراق السائل المنوي أو السائل الذكرى. ومع ذلك فهناك شئ جوهري قد وقع على الرغم من أنه سوف يتطلب وقتاً كبيراً قد عرضه أو إظهاره بطريقة مرئية.⁽²⁾

السلوك كوظيفة:

يمكن اعتبار السلوك جانباً خاصاً من جوانب الوظيفة ولو أن الوظيفة هي نشاط ضروري للحفاظ على تكامل الكائن الحي فإن الوظيفة التي تربط الكائن الحي ببيئته والحركة تكون هي بصفة خاصة الجانب الأساسي والمميز لكافة السلوك الحيواني بما في ذلك السلوك الخاص بالبشر، وفي شكله الأكثر وضوحاً يعتمد على النضوج العصبي العضلي وهذا يعني ليس فقط أن العضلات والنظام العصبي يجب كلاهما أن يتم نضجها نضجاً كافياً، بل أن التعاملات بينهما يجب أن تتم بشكل جيد أيضاً.

ومنذ حوالي خمسين سنة كانت الحركات الجنينية البشرية يتم دراستها كعروض أو المظاهر المبكرة للفردية السلوكية وقد تمت عمليات الملاحظة على أجنة تم ولادتهم عن طريق إجهاض علاجي وقد تم وضع الأجنة في محلول دافئ متوازن من الناحية الفسيولوجية ليحل محل الحامض الأميني التي يتم غمرهم فيه بشكل طبيعي للملاحظة القصيرة في الفترة السابقة على موتهم الحتمي.⁽³⁾

مثل هذه الأجنة المبكرة وجد أنها تستجيب استجابة ضعيفة للإثارة اللطيفة حول الفم بإدارة رؤوسهم بعيداً عن المثير وفي السن التطويرية من سبع إلى ثمان أسابيع ربما يدير الجنين الكبير رأسه ببطء وهي حركة تتضمن تقلص ملائم لعضلات الرقبة. وقد تم تفسير الحركة على أنها تتجنب الاستجابة النافرة من المثير ومع مستويات النضج المتزايدة أظهرت الأجنة استجابات

¹⁰ Ibid, P. 11.

²⁰ Ibid, P. 11.

³⁰ Ibid, P.29.

أقوى وأكثر تنوعاً وكافة الاستجابات كانت من نوع يسميه علماء السلوك عاكسة أو بمعنى آخر كانت الاستجابات متطابقة ومتكررة بدون أي دليل على التعديل مع المثير المستمر.⁽¹⁾

وقد كشفت دراسات تشريحية مفصلة أنه بحلول الأسابيع السبعة إلى الثمانية فإن عضلات الرقبة المتورطة في إدارة الرأس كانت ناضجة بشكل كافي بحيث يمكنها تحمل التقلص أو الانكماش، وعلاوة على ذلك وجد أن هذه العضلات مزودة بالأعصاب فعلاً وقد انتهت الخلايا العصبية على أسطح الخلايا العضلية المتفرقة وكانت الخلايا العصبية امتدادات الأعصاب كانت أجسامها الخلوية في النظام العصبي المركزي. فيما يسمى (بالقرن البطني) وتلك منطقة في الكبار حيث يكمن فيها الخيوط العصبية للحركة والخيوط العصبية عندما تتم إثارتها تسبب انكماش العضلات الهامشية أو الفرعية وبدورها كانت هذه الخيوط العصبية التي أدخلت الأعصاب إلى عضلات الرقبة على اتصال عصبي مع الخيوط العصبية الأخرى والتي لديها عمليات ممتدة بطريقة فرعية إلى النهايات أو الأطراف الحسية حول الفم، وهكذا عند المراحل التي ظهر فيها السلوك المبكر أو الأول للرقبة كانت هناك مادة عصبية تركيبية ووظيفية في مكانها، سلسلة من الأعصاب متصلة بالحس الظاهر في منطقة الفم إلى مستجيب للحركة في الرقبة.⁽²⁾

ومن المهم معرفة أنه يوجد مظهران محددان لحالة الفرد بالنسبة لنموه، أحدهما هو شكله الخارجي والآخر هو وعيه الداخلي، والاثنتان ليسا بالضرورة مرتبطين معا خلال مراحل النمو. ومع ذلك فكلاهما له أهميته بالنسبة لبداية تكوين الفرد. فأما الشكل الخارجي فيمكن تحديده موضوعياً، وأما الوعي الداخلي فلا يمكن قياسه. وأي حكم على التكوين الداخلي يكون ناقصاً لأن الإدراك والألم والقدرة على الوعي الذاتي لا يمكن التوصل إليها دون وجود بعض وسائل الاتصال.⁽³⁾

وبالاعتماد كلياً على العلامات الخارجية تمكن الإنسان من أن يميز مراحل متدرجة في نموه وهي المرحلة الخلوية أو قبل الجنينية، والمرحلة المبكرة، والمرحلة الجنينية المتأخرة، وأخيراً المرحلة الحيوية الذاتية والمتعلقة بالقدرة على التنفس، وجميع هذه المراحل متداخلة ولكن يجب التمييز بينها. والمرحلتان الأوليان الخلوية والجنينية المبكرة يمكن معرفة كونها مراحل

¹⁰Ibid, P.29.

²⁰Ibid, P. 30.

³⁰ضياء الدين محمد عطية : المستحدثات البيوتكنولوجية وضوابطها الأخلاقية ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض، 2004، ص101.

بشرية بوساطة الخبراء فقط، ويعتمد الخبراء في تعرف الخصائص البشرية لهذه المراحل على قواعد مختلفة.

ولا يظهر على الجنين خصائص بشرية مميزة خارجية لغير المتخصص قبل ثمانية أسابيع من النمو، وبعد عشرين أسبوع تظهر الملامح الواضحة المميزة للجنين. ولذلك فإنه بالنسبة لتقويم الإخصاب الخارجي، فإنه حتى الأسبوع الثامن يعد الجنين البشري ما زال مفتقداً للمظهرين الأساسيين للشخصية وهما التعرف المؤثر في الأشخاص الآخرين والوعي الداخلي.⁽¹⁾

تميز الحركة:

من المؤكد الآن أن التقارير الخاصة بالحركات الأولى أو المبكرة للأجنة الكبيرة التي تم إجهادها حتى على الرغم من أن الأجنة كانت في حالة الإشراف على الموت فإنها اتصلت اتصالاً مادية بسلوك الأجنة الطبيعية في الرحم، أيضاً ويؤكد التصوير بالأشعة فوق الصوتية أن الحركات الجنينية من نفس النوع الحتمي عند نفس المراحل الحتمية يبدأ بطريقة غير منتظمة، وبدون وقت محدد مبكرة حتى عند الأسبوع السادس. وقد تم الإبلاغ عن استجابة ارتجاف أكثر تعقيداً في الأسبوع السابع وكلا الحركتين بصفة عامة ومثل تلك الحركات الخاصة والحركات السريعة المفاجئة وحركات الأطراف المتعددة والمنفصلة تحدث في الأسبوع الثامن، ومع حلول الأسبوع التاسع تم الإبلاغ عن حركات الأيدي وإلى الوجه وحركات التنفس المترددة ومع حلول الأسبوع العاشر يحدث التثاؤب وفي الأسبوع الحادي عشر تم ملاحظة الرضع أو الامتصاص أو البلع.⁽²⁾

إن كافة هذه الحركات ظهر أنها تقع في غياب مثير معروف والحركة الفورية تثير السؤال ما إذا كان هناك مشيئة أو اختيار داخلي أو حتى حساسية ممكنة أم لا - تلك افتراضات نعاملها على أنها أشياء مؤكدة في الكثير من الأوصاف والتفسيرات المعلن عنها يتم التأكيد عليها في شريط الفيديو (والصرخة الصامتة) المرتكزة على التسجيل الصوتي لحركات الجنين السابقة وتم عرضها بشكل واسع كي تولد الشعور بعدم الإجهاد، وهناك الكثير الذي سوف يتم قوله عن محتوياته وتفسيراته فيما بعد بما في ذلك المشاكل المتضمنة للوصول إلى مثل هذه النتائج، وأما الآن يتم اقتباس الحركة فقط على أنها تمثل بداية الفردية السلوكية. وفي تميزه كمثير

¹⁰Clifford Grobstein, P. 91.

²⁰Ibid, P. 31.

للتعاملات البشرية فهذا هو بعد جيد ومهم ليس فقط فيما يتصل بالحالة الاجتماعية ولكن لاحتياجه لاعتبار دقيق فيما يتصل بالبداية الممكنة للتربية النفسية أيضاً.⁽¹⁾

الاحترام للأشخاص:

ربما يكون الاحترام للأشخاص هو القيمة الأكثر شهرة من كافة القيم الأخلاقية المرتبطة بالبحث ويتم فهم هذا المتطلب أو تلك الحاجة بطريقة تقليدية، وهي التي ينتج عنها أو يتبعها أن المواطنين البشر يجب أن يقدموا موافقتهم الرسمية لو أن من المفترض استخدامهم في البحث العلمي، ويبدأ ميثاق نورمبرج بالعبارة الواضحة أن الموافقة التطوعية للمواطن البشري هي ضرورة مطلقة. وبين إعلان هيلسنكي أن الأشخاص يجب عليهم أن يكونوا متطوعين ومشاركين رسميين أو معلنين في المشروع البحثي. واحترام الأشخاص بهذه الطريقة هو توفير أو احترام حقهم في اتخاذ القرارات بخصوص حياتهم وأجسامهم الخاصة بهم. ويشار إلى هذا الحق على أنه هو حق الاستقلال الذاتي أو حق اتخاذ القرار. ومن الناحية التقليدية قسم أصحاب النظريات الخاصة بالاستقلال مفاهيم عقلانية بعمق لما يعني العمل أو التصرف بطريقة استقلالية، وعلى سبيل المثال يجادل بعض الفلاسفة بأن كافة الأعمال الاستقلالية تنشأ من عروض ناجحة لشخص ذو عمليات عقلية معينة مثل الرغبة في المقام الأعلى ومثل التقييم الذاتي الحاسم أو الناقد، إلا أنه ليس هناك أي حاجة لأن نبقي مرتبطين بهذه الحسابات الأولى، كما أننا لسنا في حاجة إلى قول الفردية المهلهلة التي تضمنها هذه المفاهيم العقلانية - وأعتقد أنه ربما لمفهوم معين أكثر السقيا ويمكن الدفاع عنه بخصوص الاستقلال الشخصي - أن يحدد الحق الذاتي في اتخاذ القرار فيما يتعلق بتصرف شخص ما بخصوص قيمة الذاتية التقليدية سواء كانت تلك القيم مجتمعية أو قيماً ثقافية أو قيماً رشيدة ذات اهتمام شخصي.⁽²⁾

وهذا المفهوم الأكثر توسعا لفهم الاستقلالية هو مفهوم متلازم مع الاتجاه الحالي للمهنة الطبية للسماح بدرجات متنوعة لإشراك المرضى أو تورطهم في عملية الموافقة المعلنة و على المدى الخاص بالبداية الطبية كما يتم توجيهها بواسطة قيم المريض.⁽³⁾

أو بمعنى آخر - كيف يمكن لاحترام الأشخاص أن ينتج عنه أو يتبعه احترام صناعة القرارات المستقلة وينطبق - مع ذلك - أيضا على أفراد تنقصهم الاستقلالية إما نقصاً جزئياً أو

¹⁰ Clifford Grobstein, P.31.

²⁰ Ibid, P. 31.

³⁰ Insoo Hyun.; Bioethics and the Future of Stem Cell Research, Cambridge Un Press, 2013, P.72.

نقصاً كاملاً؟ من الواجب علينا دراسة هذين الاثنين من المكونات التي تشكل احترام الأشخاص بطريقة منفصلة.

إن مفهوم [احترام] يأتي إلينا من الأصل اللاتيني (احترام) ويعني النظر إلى الخلف، إن دراسة أصل اللفظ (احترام) تكون دراسة مضيئة عندما يضع المرء في اعتباره كيف أن القيد اللاوجودي لاحترام الأشخاص يتناقض تناقضاً نمطياً مع أساليب النزعة الخاصة بالنتائج للتقييم الأخلاقي، ولنتذكر أنه طبقاً لهؤلاء الداعمين لنزعة النتائج أو طبقاً للنزعة النتاجية فإن الرد الأخلاقي المناسب لأي شيء خاص بقيمة فطرية أخلاقية هو ترقيته أو تحسينه إما في العدد أو في دوامه أو شدته أو ما شابه ذلك، وطبقاً للاوجودية فيكون الأمر على النقيض من ذلك: فيكون الرد الملائم لشيء له قيمة فطرية أخلاقية هو الاحترام واللاوجودي لا ينظر إلى الأمام مثل الداعم للنتائج بسؤال نفسه أو نفسها - كيف من الواجب عليها ترقية شيء ذي قيمة بل إنها تنظر إلى الخلف وتوقر ذلك الذي يكون ذات قيمة أخلاقية بالخروج عن الطريق وبتركيمه بالحرية لأن يكون كما هو عليه.⁽¹⁾

بداية الحياة :

كثير من الناس افترض أن إجابة السؤال متى تبدأ الحياة أن تكون مهمة أخلاقياً؟ هي نفس إجابة السؤال متى تبدأ الحياة البشرية؟ لحظة المفهوم يحتمل أن تبدو الإجابة الواضحة الإجابة السؤال متى تبدأ الحياة. فوق أي مرشح منافس يبدو أن له الحافة المقررة أنه حدث معرف والذي منه تبدأ البويضة العملية المستمرة حتى تؤدي إلى النضوج.

لكن بالطبع البويضة تكون حية قبل الحمل بالفعل تمر عبر مرحلة التطور والنضوج والتي بدونها يكون الحمل مستحيل للسائل المنوي، أيضاً، يكون حي ويتلوى.

إذن الحياة لا تبدأ من لحظة معينة، وإنما هي مستمرة. وهذا الرأي يتفق عليه معظم البيولوجيين والأطباء. ولذا فلسنا بحاجة، وفقاً لهذا الرأي، إلى تحديد متى تبدأ الحياة، ولكننا بحاجة إلى معرفة متى يكون للكائن الحي قدسية، أو بمعنى آخر متى يصبح الكائن البشري شخصاً له حقوق أخلاقية؟⁽²⁾

إن الحياة عملية مستمرة والتي تقدم دون أي إعاقة من جيل لجيل باستمرار وتحسن. إذن، ليست الحياة ما يبدأ عند الحمل. لكن إذا لم تكن الحياة، أليست على الأقل الفرد الجديد الذي يبدأ عند الحمل؟، ربما بعض الأشياء تبدأ عند الحمل. يمكن ألا ينتج الإخصاب

¹⁰ Ibid, P. 74.

²⁰ ناهداة البقصي: ص138.

بجنين لكن نسيج يمكن أن يهدد حياة الأم. هذا النسيج، لن يتم إعطاؤه جميع الحقوق والحماية التي يتحصل عليها من لحظة الإخصاب. حتى عندما يكون الإخصاب على المسار الصحيح، فهو لا ينتج فرد من أي نوع. البويضة المخصبة تصبح مجموعة من الخلايا والتي تنقسم إلى مكونين أساسيين: - كما سبقت الإشارة - أرومة مضغية والأديم الغازي. الأرومة المضغية يصبح الجنين والأديم الغازي تصبح الأغشية الجنينية الزائدة، المشيمة والحبل السرى. مشتقات الأديم الغازي حية، بشرية، ولها نفس التكوين الجيني مثل الجنين ويتم التخلص منها عند الولادة.

هو أن البويضة المخصبة لا يمكن اعتبارها فرد جديد لأنها يمكن أن تصبح فردين. يمكن تنقسم البويضة المخصبة لتكون توأم ويمكن أن يحدث ذلك متأخراً لمدة أسبوعين بعد الإخصاب.⁽¹⁾

يجري الجدل عادة حول ما إذا كان الشخص يبدأ بمجرد الحمل، عند مناقشة قضية الإجهاض. والمنطق يقول إن قضية ما إذا كان الجنين شخصا تختلف عن قضية الإجهاض. لكن مناهضي الإجهاض يخشون أن ينزلق الجبل إلى منحدر التبرير: إذا سمح المجتمع بقتل الأجنة المبكرة فسيسمح بتدمير الأجنة المكتملة، ومن ورائها المواليد (ملاحظة: أستعمل لفظ "شخص" لأعني أن الكائن قد يكون "بشراً" لا شخصاً).

إن الخوف من المنحدر الزلق إنما يفسر الرأي القائل إن "الشخصية تبدأ مع البويضة المخصبة (الزيجوت) لدى حدوث الحمل، وتعني هذه النظرة أن الوسائل التي تعمل داخل الرحم لمنع غرس الزيجوت في جداره إنما تقتل "أشخاصاً". لكن نسبة قد تصل إلى 30% أو 40% من مثل هذه الأجنة المبكرة تفشل في غرس نفسها في الرحم تحت الظروف الطبيعية. ثمة دليل غير مباشر: إذا كانت هذه الأجنة في الحق أشخاصاً فقدوا أرواحهم، فلماذا لا يجري تعميدها؟ وتسميتها؟ وترتيب جنازات لها؟⁽²⁾

إن الأجنة المبكرة ليست أشخاصاً لأنها لا تحمل معيار تمييز الشخص. كان جوزيف فلتشر أول من وضع ذلك المعيار في الأخلاقيات الطبية الحديثة. يقول المعيار إنه يلزم للفرد كي يكون شخصاً أن يكون قادراً على التفكير، وعلى تذكر حياته وعلى الإدراك. إن ما يميز الشخص الناضج العادي عن الفأر مثلاً هو قدراته الخاصة على التفكير المنطقي، والوعي التأمل بالذات، وبالفعل المبني على دوافع). والوعي بالعالم الخارجي، وأقل دعوى: ليست بأن أية واحدة من

¹⁰Harris, J., The Value of Life, P. 11.

²⁰جريجورى : من يخاف استنساخ الإنسان ، ترجمة أحمد مستجير ، مراجعة فاطمة نصر، مطابع اللوتس ، القاهرة، ١٩٩٩ ، ص١٩٢.

هذه القدرات تكفي لإضفاء الشخصية وإنما أن كل هذه القدرات مجتمعة تحدد جوهر المعيار كمجموعة. أما الأكثر أهمية فهو أن الكائن الذي يفتقر إلى كل هذه القدرات - كمثل الجنين المبكر - لا يوفي متطلبات معيار التمييز هذا، ومن ثم لا يمكن أن يكون شخصاً.⁽¹⁾

الفكرة الأساسية هنا بسيطة: أن الوعي هو أساس كل قيمة، ان عالماً بلا كائن واع - مهما بلغ قدر جماله إذا كان لكائن واعٍ أن يراه - لا يفضل عالماً خالي من مظاهر الجمال يحمل كائناً واعياً واحداً. فالوعي هو شرط كل تفكير تأملى واختيار وفعل.

المعيار الفكري نسق جيد لطرفي الحياة كليهما. إنه يفسر السبب في أن الحياة بضع سنين في حالة خضرية لا تتغير، إنما هو الموت بعينه للشخص. لقد كانت "كارين كوينلان" و"نانسى كروزان" كلتاهما في عداد الأموات منذ زمان طويل وكانت المحاكم تنظر قضيتهما.⁽²⁾

قد يجزنا البعض إلى خضم جدل عن "الشخص المحتمل"، ليشيروا إلى أن الأجنة البشرية هي أشخاص محتملة. يسهل إبطال هذا الجدل بطريقتين. أولاًهما أنها تقلل بشدة وتغفل الاختيار والالتزام من جهة الأم لمدة شهور تسعة من الحمل، وعشرين عاماً من التنشأة لكي تقدم إنسانة ناضجة، أن ذلك أشبه ما يكون بقولنا ان ثمرة البلوط هي من ناحية القيمة والمفهوم شجرة بلوط عمرها عشرون عاماً وطولها ستون قدماً. لو أتي التقطت ثمرة بلوط من حديقتك فلن تهمني بالسرقة، لكنك ستهمني بذلك إذا اقتلعت من حديقتك شجرة بلوط ناضجة. إن قتل امرأة تأكدت لتوها أنها حامل لا يعد قتلاً مزدوجاً. وحتى عندما يخبرنا "العهد القديم" عن اكتشاف امرأة حامل دون زواج، ثم حرقها أو رجمها حتى الموت (سفر التثنية ٢٢: ٢٢ ، لاويين ٢١: ٩ ، سفر التكوين 38: 24) فسنجده أبداً لا يعد ذلك حرقاً أو رجماً لشخص ثان. (الواقع أن الأجنة المبكرة لم تعد "أشخاصاً" حتى عصر متأخر من المسيحية، نحو عام ١٨٧٩).⁽³⁾

ثانياً: وحتى لو عدنا الأجنة أشخاصاً إذا حملتها نساء راغبات، فإن هذا لا يعني أن على النساء أن ينفذن هذا. والاعتقاد بعكس هذا يحمل الكثير من التضمينات غير المباشرة، من بينها أنه يبدو أنه يلزم كلا منا، نحن من نحيا على هذا الكوكب الذي يفيض بالسكان، بأن يحقق فعلياً "أكبر عدد من الأشخاص المحتملين".

لهذه الأسباب، فإن الأجنة المبكرة أشخاص، ومن ثم فإنها لا تعامل كأشخاص. كما أنهم يصبحون أشخاصة بالتدرج عبر عملية متصلة، بحيث يصبح من المعقول أن نقول أن الجنين

¹⁰ المرجع نفسه ، والموضع نفسه.

²⁰ المرجع نفسه ، ص 162-163.

³⁰ المرجع نفسه ، ص 163.

في شهره الثامن يكاد يكون شخصا، بينما لا نستطيع أن نقول ذلك عن جنين من ثماني خلايا، أن التحدي الآن هو أن تجد طريقة لتمويل بحث الأجنة لنساعد "الأشخاص".⁽¹⁾

الاحتمالية المزعومة:

هناك صعوبتان في الاحتمالية المزعومة واللذان مرتبطتان وخطيرتان بالنسبة لها. الأولى أن الحقيقة المجردة أن شيء ما سوف يصبح "س" (حتى إذا كانت ستصبح س احتما، والذي هو أبعد ما يكون عن حالة البويضة المخصبة والإنسان البالغ) ليس سبب جيد لمعاملتها الآن كما لو أنها "س" فعليا. سوف تموت جميعا، لكن هذا، كما افترض، ليس سبب ملائم لمعاملتنا كأموال.

الصعوبة الثانية هو أنه لست البويضة المخصبة فقط هي إنسان محتمل . البويضة غير المخصبة والسائل المنوي هما إنسان محتمل جديد و بشكل متساوي. لقول أن البويضة المخصبة هي إنسان محتمل هو مجرد قول أنه إذا حدث شيء محدد لها، ولم يحدث لها أشياء معينة (مثل الإجهاض)، فإنها ستصبح إنسانا محتملا أخيرا فإن هذا صحيح أيضا بالنسبة للبويضة غير المخصبة السائل المنوي.

إذا حدثت أشياء معينة للبويضة (مثل مقابلة السائل المنوي) وحدثت أشياء معينة للسائل المنوي (مثل مقابلة البويضة) وبعد ذلك لم يحدث أشياء معينة (مقابلة وسيلة منع الحمل)، إذن سوف تصبح إنسانا جديدا حتمياً.⁽²⁾

في بعض الأحيان يتم الاعتراض على أنه ليس فقط للبويضة المخصبة التي لها التواجد الأساسي المفترض في مكان واحد وأن هذا هو ما يعتبر جوهرى. فقط عندما يتم تخصيب البويضة تواجد الكينونة الجديدة الفريدة والتي في ذاتها تملك كل الضروريات المحتملة لتصبح إنسان جديد. يبدو ذلك مقبولا بالدرجة الكافية. إلى أن يتذكر أن شيء ما لديه الاحتمالية لتصبح هذه البويضة المخصبة ومهما كان ما يملك هذه الاحتمالية، يحتمل أيضا أن يصبح إنسان جديد.

إذا تجاهلنا إن الصعوبة الأولى للاحتمالية المزعومة، واعترفنا أننا بطريقة ما أخلاقية مطلوب منا تحقيق كل البشر المحتملين، فإننا جميعا نكون داخل الوقت المستنزف بشكل عالى. ومن الواضح أنه إذا وضعنا المجهود الأفقي في التكاثر والذي هو مقلب ملح، ستكون مساعينا مهزومة ذاتياً.

¹⁰ المرجع نفسه، ص 163.

²⁰ Harris, J. The Value of Life, P. 12.

كل ما يمكن قوله عن البويضة المخصبة هي نسيج بشري عن الحياة نفسها لا تبدأ بالإخصاب لأن البويضة والسائل المنوي جنين أيضا. الحياة تستمر وهذا فما نحتاجه ليس تفسير ل متى تبدأ الحياة، متى تبدأ الحياة أن تكون ذات قيمة أخلاقية. أجابه كليفور د جوربشتين على هذا السؤال كانت ذات تأثير. وتستحق التمعن فيما افترضه.⁽¹⁾

النفس :

يزعم جوربشتين أن المهم ليس بداية الحياة، ولا حتى حياة الإنسان، لكن النفس، النفس بالنسبة لجوربشتين هي الشخصية، والتي تجعلنا إنساناً على نحو مميز، الذي له حياة "داخلية". التنفس ستكون لها منطق النفس، وهذا يعني في تأثير الوعي الذاتي. النفس ليست مجرد إحساس، فهي إحساس داخل شيء محيد والذي هو المرادف الفيزيائي التمييز الإحساس بالنفس. هذا هو التعريف الأدنى للنفس، كما سنرى، ويعرض جوربشتين ثلاثة معايير، إدراك حضور النفس، أولاً، النفس سوف يبرز السلوك الشخص الحالة النفس الأولية، وهذا السلوك سيكون الاستجابة الأدنى للتغير الخارجي. المثال المعروض لهذه الاستجابة هو إثارة الجنين ، والاستجابة كانت بأبعاد الرأس ببطء ضعف عن الإثارة.

المعيار الثاني هو امتلاك عمليات وظيفية وسلوكية. مثال على هذه العملية هو الجهاز العصبي، المعيار هو أن النفس ندرك على أنها نفس بواسطة الآخرين. المعيارين الأولين لا تميز في الحقيقة بين الأشخاص والحيوانات، أو حتى الجنين البشري عن أجنة الحيوانات. لهذه الأسباب، جوربشتين مجبر على وضع كل الحمل الخاص بإدراك النفس على المعيار الثالث.⁽²⁾

قال جروبستين (Clifford Grobstein) أن قبول الكائن البشري كشخص يتوقف على شعور الآخرين - الناضجين منهم - به، أو بمعنى آخر، أن شعور هؤلاء بالجنين البشري كشخص يكفي لكي نحترمه ونحافظ على حياته ولا نتلاعب بها. ولكن ماذا عن الأجنة التي ليس لها أصحاب يطالبون بها أو يدافعون عنها، كما حدث في استراليا حين توفي مليونير وزوجته في حادث سيارة وهم في طريقهما إلى مركز الإخصاب الصناعي لزراعة بويضة الأم الملقحة التي يتم تلقيحها بسائل الزوج قبل أشهر؟ لقد أثارت هذه القضية مشاكل قانونية وأخلاقية كبيرة، إذ إن البويضات الثلاث الملقحة سترث ملايين الدولارات إذا تم زراعتها في رحم أي امرأة، فهل يجوز ذلك من الناحية القانونية؟ ثم من هي المرأة التي تستحق هذه البويضات؟ وهل يمكن التخلص من تلك البويضات لكي لا تثار أي قضايا قانونية أو أخلاقية؟ فإذا كنا نشعر أن

¹⁰ Ibid, P. 12.

²⁰ Ibid, P. 13.

الجنين في مرحلة انقسام الخلايا إلى ثماني أو ست عشرة خلية يعتبر شخصاً يستحق الاحترام، فنحن دون شك لن نقبل التخلص من هذه البويضات، ولو كنا قد توصلنا إلى معيار ثابت نقيم من خلاله الكائن البشري، لاستطعنا معرفة ما الذي يجب أن نفعله في موقف كهذا. ولكننا لم نستطع الوصول إلى تحديد مثل هذا المعيار الثابت. فقولنا إن الكائن البشري يمكن أن يعد "شخصاً" إذا كان يعي نفسه. ويملك الاستقلال والإرادة الحرة، وإذا كان مسؤولاً عن أفعاله، كل هذه مجموعة من الخصائص لا يمكن الأخذ بإحداها دون الأخرى. إننا بحاجة لها كلها معا لكي نقيم الكائن البشري خلالها.⁽¹⁾

الحياة والقيمة الأخلاقية :

الجميع يحتاج إلى طريقة ندرك بها أن الآخرين أشخاص أكثر من كونهم حيوانات، آلات، أو مجموعة من الخلايا البشرية إذا تم التوافق على الحالة الاجتماعية والأخلاقية للشخص عبر الإدراك والقبول بواسطة الآخرين، تم التوافق أيضا أننا نأمل التبرير، فالأشخاص ليسوا أشخاصاً لأنهم مقبولون، لكن هم مقبولون لأنهم أشخاص. فالسؤال لا بد أن يكون، ماذا يجعلنا قبل النطفة أو الجنين أو الوليد أو الطفل أو أي شيء على أن هذا النطاق من الخصائص التي يجعلهم أشخاصاً استناداً إلى ما نحتاجه أخلاقياً لقبول شيء ما / شخص ما على أنه شخص، وبالتالي نحتاجه أخلاقياً للامتناع عن معاملتهم بطرق لا تعامل بها الأفراد؟⁽²⁾

إن معيار القدرة على تقييم الحياة لا يختلف عن المعيار السابق كثيراً، إذ أن كليهما يعبر عن حالة داخلية يشعر بها الكائن البشري، وإثباتها من الخارج يتوقف على سلوك ذلك الكائن. بل إن القدرة على تقييم الحياة مشتقة من وعينا بذاتنا الذي يتطلب بدوره قدرة على إدراك الذات كما هي. فإن "الشخص" ، هو أي فرد قادر على تقييم حياته الخاصة، ومثل هذا الكائن، يستطيع، على الأقل أن يدرك نفسه على أنه مركز مستقل للوعي والشعور، موجود في الزمن ويحمل سمات تمكنه من أن يتخيل ويتمنى المرور في تجارب خاصة⁽³⁾. فمتى يفقدونها؟ من المفيد أن نوضح أولاً أن الفرد الذي يفقد القدرة على تقييم الحياة، حتى حين لا يقيّمها بشكل إيجابي أو يمتنع عن ذلك نهائياً، بمعنى أن عدم التقييم، أو التقييم السلبي، هو في حد ذاته دليل على وجود هذه القدرة، ولكن قد يثار سؤال مهم، هو: ماذا عن الأشخاص النائمين أو فاقد الوعي؟ إن مثل هؤلاء "ربما لن يكونوا قادرين على تقييم الحياة أو تقييم ذاتهم في ذلك الوقت،

¹⁰ ناهدا البقصى، ص 137.

²⁰ Ibid, P. 13.

³⁰ Harris, J. "In-Vitro Fertilization: The Ethical Issues", P. 225.

ولكنهم لا يفقدون هذه القدرة بشكل دائم وحتى، لأنهم سيستعيدونها حالماً يستعيدون وعيهم"، ونحن في العادة تنسب إلى الآخرين وإلى أنفسنا قرأت قد لا نمارسها بشكل دائم، ومع هذا فهي تنسب إلينا. كالقدرة على النطق والسمع وغيرها، فهي لا تنتهي بانتهاء ممارسة الإنسان لها.

ولكن ماذا عن الجنين في مراحل نموه المختلفة؟ هل هو يملك هذه القدرة كما يمكن القدرات الأخرى أعني الوعي بالذات، والحرية، والاستقلالية في اتخاذ القرارات فإذا كنا نتفق مع الرأي القائل إن "الجنين البشري ما هو إلا شخص كامن بالقوة ويملك قدرات ستظهر فيما بعد"، فإن علينا أن نجيب على الاعتراض القائل "إن امتلاكنا الكامن للقدرة، أيا كانت، لا يعني سوى أن هذه القدرة تنقصنا"، ولكننا يمكن أن نطورها تحت ظروف معينة. فأنا حين أتكلم الفرنسية لا أملك القدرة على ذلك بالقوة، وإنما أملك هذه القدرة بالفعل، ولكنني إذا كنت أملك القدرة بالقوة على التحدث بالروسية، فإن هذا لا يعني أنني أتحدثها، بل إننا بحاجة إلى ممارسة طويلة لهذه اللغة لكي أثبت أنني أملك هذه القدرة، أي أنني أملك القوة (الكامنة) حين تقضي هذه القدرة، ولكنني إذا كنت أملكها بالفعل فهي ليست كامنة وإنما موجودة بالفعل⁽¹⁾. ولذلك يعتقد أحيانا أن الأجنة المجمدة الزائدة عن الحاجة، يجب التخلص منها طالما أن الهدف من إبقائها ليس الإخصاب الصناعي، فهي لا تعد أشخاصا في لحظة تجميدها، بل ولا تملك تلك الخصائص، وإذا نمت لمرحلة أبعد ستسبب معضلة أخلاقية، لأننا إذا قتلناها فيما بعد نكون قد قتلنا إنسانا تنقصه القدرة على تقييم ذاته في المرحلة الحالية، وحين نعطي لها فرصة البقاء لا نعرف إذا كان يمكن أن تملك هذه المقدرة في المستقبل. ولذلك من الأفضل أن نتخلص من هذه الأجنة المجمدة قبل أن تثير مشكلة أخلاقية! فنحن لا نستطيع الاحتفاظ بالجنين لأن ما يملكه (بالقوة) قد يتحول إلى قدرة تجعله (إنساناً).

أن الاعتماد على هذا المعيار الفضفاض لا يكفي لتبرير سلوكنا تجاه الآخرين. إذ إننا قد نقتل الآخرين بحجة أنهم غير قادرين على تقييم حياتهم. ونحن الذين نقيم هذه الحياة. ففي الطب مثلا، قد يحدث في بعض الأحيان أن يقتل الفرد بحجة تقييم الحياة واحترامها، كما في حالة "امرأة حامل اكتشف الأطباء أن جنينها فيه تشويه خلقى، لذلك وافقت على أن تجري لها عملية إجهاض علاجي، وقبل العملية طلب الجراح المسؤول عن قسم (أمراض الكبد) أن

¹⁰Harris, J., The Value of The Life, P. 26.

يوافق الوالدان على أخذ كبد الجنين لزراعته في جسم طفل آخر، وبعد محاولات إقناع عديدة وافق الوالدان. وبعد الموافقة تم نقل الكبد منه إلى الطفل الثاني".⁽¹⁾

الفردية والأنا :

يرتبط مفهوم "الفردية" بمسألة الأنا التي ما تزال غائبة في مفهوم الفرد ، وإن الحيوان - مثلا - لا يميز نفسه عن نشاطه الحياتي ، وهذا يعني أن الأنا الذاتية مفقودة لديه ، إذا كانت الأنا موجودة فهذا يعني أن الفرد يميز نفسه بوعي عن الآخرين، وعن نشاطه الشخصي ، ويعني - أيضا - أن الفرد يدرك أن نفسه هي مركز يدور حوله كل ما يحيط به.

الفكرة المحورية في المذاهب المثالية التي تنادي بأن الذات هي العامل الفعال والمنظم ، ومفهوم الأنا في أمثال هذه المذاهب أنها حامل مستقل تماما للقدرات الروحانية ، وقد ارتبطت فكرة الأنا ابتداء من ديكرت بمشكلة "الأصل" في إنشاء المذاهب الفلسفة ، ففي رأي ديكرت أن الأنا : أي المبدأ الحدسي للتفكير العقلي ، يخص الجوهر المفكر ، أما هيوم الذي يرفض أي جوهر أو مادة ، فقد ردها إلي حزمه من الإدراكات الحسية ، ونصب كانط الأنا الخالصة مقابل الأنا التجريبية الفردية ، واعتبرها الوحدة الكلية الصورية اللادراك المتميز وحامل الأمر المطلق واعتبر فيخته الأنا المبدأ الأخلاق المطلق الذي يطرح نفسه والوجود جميعه على أنها اللاأنا الخاص به، أما هيغل فإنه كمثالي موضوعي دحض جميع هذه المحاولات التي تأخذ الأنا علي أنها البداية ، وحاول أن يشرح الأنا على أنها وحدة محض للوعي الذاتي الموضوعي ، ونجد التعبير عن صيغ الأنا بصيغة المطلق في أحداث التيارات المثالية (على سبيل المثال في التجربة النقدية والوضعية الجديدة والوجودية).

ونجد الشكل المتطرف للرأي الذاتي المثالي عن الأنا في الأنانية ، وقد أضفي فرويد طباعا بيولوجيا على الإنسان ، وقسمه إلي أنا ، وأنا أعلي وتعارض الماركسية بالفكرة المادية عن الإنسان التفسير اللاعقلي للأنا ، فالماركسية تري ماهية الأنا الإنسانية بشكل مطلق في العلاقات الاجتماعية، وتبرهن على أن الإنسان (الفرد) يتوج تطور الطبيعة ككل ، لا لشيء سوي أنه الخالق الوحيد لعلاقاته الاجتماعية ولحضارته المادية والروحية كلها.⁽²⁾

التفرد

¹⁰ المرجع نفسه، والموضع نفسه.

²⁰ روزنتال ، يودين : الموسوعة الفلسفية ، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، 1981، ص54.

مبدأ التفرد اصطلاح انتقل من ابن سينا إلى فلاسفة القرون الوسطى عبر الترجمات اللاتينية ، وهو القول بأن لكل كائن وجوداً جزئياً ، يتفرد به في الزمان والمكان ، أو يتميز به عن غيره من أفراد النوع.⁽¹⁾

والتفرد عملية أساسية عند يونغ ، وهو الإمكانية الفطرية الموجودة في كل فرد والتي بها تتمكن النفس الفردية من تحقيق تمام نموها وارتقائها⁽²⁾ ، يقول يونغ التفرد يعني الميل لأن يصبح الكائن فردياً بحق ، وحيث إننا نعني بالفردية شكل وحدانيتنا الأكثر حميمية وحدانيتنا النهائية والمحسوسة ، المقصود هو تحقيق الذات بأكثر ما فيها من شخصي وعصبي عن كل مقارنة يمكننا إذن ترجمة كلمة "التفرد" بتحقيق الفرد لذاته.⁽³⁾

وحيث أن الفرد الإنساني يتألف ، كوحدة حية ، من حشد ومجموعة من العوامل العالمية فهو جماعي تماماً ودون ظل من معارضة للجماعية ، ولا نستطيع أن نشدد علي الخصوصية الفردية لكائن دون أن نناقض هذه المسلمة الأساسية للكائن الحي ، ولكن بما أن العوامل العالمية بذاتها لا توجد ولا تتقدم لنا إلا بأشكال فردية ، فإن أخذها بعين الاعتبار الكلي يحتم تبلوراً فردياً إلى أقصى حد تبدو بجانبه كل فردانية باهتة.

ليس للتفرد من هدف أخر غير تحرير الذات ، من الأغلفة المزيفة للقناع من جهة ، ومن القوة الإيحائية للصورة اللاواعية من جهة أخرى ، وما سبق أن قلناه يكفي الإيضاح ما يعنيه القناع نفسانيا ، أما فيما يتعلق بالمنظور الأخر ، أي بفاعلية اللاوعي الجماعي ، فإننا نتحرك في عالم داخلي مظلم وقاتم ، تتجاوز صعوبة فهمه وإدراكه نفسانية القناع المتاحة لكل فرد بكثير ، فكل فرد يعرف ما تعنيه عبارة "أخذ موافقة أو لعب دوراً في المجتمع" إلخ ، نريد بفضل القناع أن نظهر في هذا الجو أو ذاك ، أو أننا نختبأ إرادياً خلف هذا القناع أو ذاك ، حتى أننا نبي لأنفسنا أحد الأقنعة المعطاة ، إذا مسألة القناع لا تقدم صعوبات فهم كبيرة جداً .

ولكن وصف العمليات الداخلية الدقيقة، التي تستحوذ على الوعي بكل قدراتها علي الإيحاء، بصورة مفهومة عموماً، هو على درجة من الصعوبة مختلفة تماماً، نستطيع بفضل الأمثلة المأخوذة من الأمراض العقلية والوعي الخلاق والتحويلات الدينية أن تشكل عنها صورة بأقصى ما يمكن من سهولة.⁽⁴⁾

¹⁰ جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج ٢ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٣٨ .

²⁰ مراد وهبه : المعجم الفلسفي ، دار قباء الحديثة ، القاهرة ، 2007 ، ص ١٢١ .

³⁰ يونغ. ك. غ: جدلية الأنا واللاوعي، ترجمة نبيل محسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ١٩٩٧.

ص ٨٩.

⁴⁰ المرجع نفسه، ص 91.